

إسلاميات

ملاح
التوجيه الإسلام للعلوم
لك علماء المسلمين

الدكتور عبد الحكم عبد اللطيف الصبيدي
الأستاذ بجامعة الأزهر



مركز الكتاب للنشر

ملاح
التوجيه الإسلام للعلوم
لك علماء المسلمين

الدكتور عبد الحكيم عبد اللطيف الصعدي
الأستاذ بجامعة الأزهر

١٤١٣ هـ
١٩٩٢ م

المقدمة

' الحمد لله رب العالمين، الذى خلق الانسان علمه البيان، ثم الصلاة والسلام على النبی العدنان، الذى أنزل عليه القرآن، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

وبعد.....

فقد منّ الله - تعالى - علينا بدين الإسلام، فأخرجنا به من ظلمات الجهل إلى نور اليقين، ذلك لأن دستور الاسلام هو القرآن الكريم، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأحاديث رسوله - صلى الله عليه وسلم - وسنته المطهرة، وهذان المصدران هما النبع الصافى، والأساس الفكرى لصلاح أحوال الناس، عقيدة وسلوكاً فكرياً وعملاً، حيث يمتد ذلك ليشمل العلوم الأساسية والتطبيقية، ولقد فهم الرعيل الأول من المسلمين هذه الجقائق، ووضعوها

نصب أعينهم، منذ أن بزغ فجر الحضارة الاسلامية، وانتشر في الخافقين سناها، واتسع طاقها ونطاقها، ولا غرو فقد تربع على عرشها، وتسبم ذُرَاهَا كثير من العلماء الأفذاذ، الذين انطلقوا في هذا المجال يحملون ألوية الحق، ومشاعل الهداية، والتنوير، كل هذا بدافع من وحي إيمانهم فحسنت عبوديتهم لله - تعالى - واستقامت خلافتهم له في ملكه، وأتتهم الدنيا راغمة، ففي الحديث القدسي «يادنيا من خدمنى فإخدميه، ومن خدمك فاستخدميه»، فقد تجلت في أذهانهم شمولية النظرة فضلاً عن عمقها، وتأييد ذلك في الواقع بصدق التطبيق ودقته.

وحينما نجيل النظر، ونعمل الفكر، محلقين في سماء منجزاتهم القيمة، خلال تاريخهم الوضئ والمضئ، ونتجول في رياض أعمالهم، نجد نظرتهم الثاقبة، وقناعتهم الكاملة بتواصل عطاءات الفكر البشرى، مع حاجته لهدى السماء، فقد آمنوا بأن العلوم الكونية، والمعارف البشرية، كل ذلك ليس حكراً على شعب دون شعب، ولا وقفاً على أمة دون أمة، وإنما هو متاح لكل البشر، ويجب أن يبذل لكل طالب مهما نأت به الدار، أو بعد عليه المزار، من حيث الاستفادة

بمعطيات هذا الفكر، والانتفاع بثمراته، والعمل الجاد على تجويده وإجاداته، إسرء للمعارف البشرية والعلوم الإنسانية، ومواكبة لسنة التقدم البشرى فى كل المجالات وشتى الميادين مع الأخذ فى الاعتبار أن كل هذا لا ينقص من قدر المستفيد، ولا يفتاى على المبتكر ويغمطه حقه، فالأهم التى تبتكر وتخترع — لاشك — لها فضل السبق فى هذا المضمار أو ذاك، كما أن الأمم التى تستفيد بهذه الابتكارات والمنجزات تبع فى الفضل لتلك الأمم المخترعة، فكما يقولون «الخير بالخير والبادى أكرم».

وأن الاقتباس والأخذ شىء وارد فى هذا الصدد، ولكن ذلك كله — عند المسلم — مشروط بالأصول الإسلامية، ومحكوم بالضوابط الشرعية، التى يجب مراعاتها، حتى لا يؤدى كل ذلك النقل والاقتباس الى ما لا تحمد عاقبته من النتائج العكسية، فالإطار الإيمانى هو الذى يحكم كل تصرفات المسلم، فهو دائماً يتحرك فى الحياة بوحى عقيدته فهو محكوم بها لا حاكم عليها، وصدق الله العظيم إذا يقول ﴿وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله﴾^(١).

سورة الحشر (٧)

وسأحاول — بفضل الله تعالى — إعطاء فكرة مبسطة وميسرة عن منهج علماء المسلمين الأوائل في الاستفادة من معطيات الفكر البشرى السابقة، وكيف وجهوها طبقاً لمقررات عقيدتهم، وتبعاً لمتطلبات حياتهم، مع إيراد بعض الأمثلة التى تجل لنا وجه هذه الحقيقة، وهل اقتصر دورهم على الاقتباس والنقل؟ أم تعدى ذلك إلى التجديد والاجادة؟.

مع إطلالة سريعة، وتعريف موجز ببعض مشاهيرهم، من الذين طبقت شهرتهم الآفاق، وسارت بأخبارهم الركبان، وأختم ذلك بمناقشة موضوعية يتضح لنا من خلالها موقف الخلف مقارناً بموقف السلف، وليس كل هذا من قبيل تزكية النفس، والتغنى بأمجاد الآباء، فنحن على ثقة من قول القائل:

ليس الفتى من يقول كان أبى

إنما الفتى من يقول هأنذا

فالذى يقول: كان أبى كذا وكذا ثم يتوقف يكون بهذا قد أساء أبلغ أساءة الى نفسه فضلاً عن إساءته لأبيه، أما الذى يقول كان أبى وهأنذا أنسج على منواله، وأنهج نهجاً مطوراً مجدداً محسناً، فهو الفتى الذى يستحق المكانة المرموقة

تحت قبة الفلك، فنحن حينما نورد هذه الفضائل فضلاً عن غيرها، وغيرها كثير فإنما نحاول دفع عجلة التقدم الواعى الرشيد، كما نحاول حث الخطو، ومواصلة السير على الدرب الصحيح، مستعينين بالله، تلهج ألسنتنا بالضراعة اليه:

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، فلا حول إلا بك ولا طول إلا منك، وأنت على كل شىء قدير.

المؤلف

د. عبدالحكم عبد اللطيف الصعيدى
كلية الزراعة - جامعة الأزهر

القاهرة - مدينة نصر

رجب ١٤١٣ هـ

ديسمبر ١٩٩٢ م

علماء المسلمين بين النقل والابتكار

إن من الإنصاف والحق أن نقول: حينما أشرقت شمس الإسلام على دنيا الناس، واستضاءت نفوس المسلمين بها، انتشرت من جوانحهم إلى جوارحهم، فأصبحوا خير أمة أخرجت للناس، أصبحوا أهل حضارة وصناع حضارة، إذ إن مبادئ الإسلام صاغتهم على نحو جديد من الكمال والفضل، ولم يكونوا - كما يروج الماكرون - مجرد نقلة لحضارات الغير، ذلك لأنهم قد أتوا إلى البيت من الباب، لا أنهم تسوروا المحراب، فباب الخير في كل شيء هو هدايات السماء، فما ينبغي أن يغيب عن ذهن أى مسلم - كما يقول الاستاذ عبد الواحد القاضى -: أن كل ماحقه الانسان من تقدم فى العلوم والمعارف، ومن رقى فى حياته على الأرض، لم يكن ليتحقق منه لولا ماحمله اليها الرسل من مناهج وقيم جعلتهم فعلاً أساتذة البشرية وهدايتها. ونقول بحق أن أهل الحضارة الغربية عالة على الحضارة الإسلامية بما حققته من تقدم فى العلوم والمعارف والفنون، وبما مكنت فى المجتمعات من قيم عظيمة وأخلاق عالية، فأضافوا إلى العلوم والمعارف والفنون بقدر ما سمحت به سنن التطور والارتقاء، وأنقصوا من القيم والأخلاق بقدر استجابتهم لأهوائهم ولوسوسة شياطينهم. وسيأتى يوم قريب إن شاء الله نرث فيه منهم تقدمهم العلمى لنضيف إليه بقدر ما تسمح به أيضا سنن التطور والارتقاء، ولنعيد للقيم عظمتها، ولأخلاق رفعتها وهكذا ستظل عجلة الحضارة تدور بين شرق وغرب حتى يتحقق قول الله تعالى: (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً، فجعلناها

حصيدا كأن لم تَغْنْ بالأمس كذلك تفصل الايات لقوم
يتفكرون^(١)/^(٢).

ونحن حينما نراجع التراث الثرى الذى خلفه هؤلاء الاعلام نجد
الألمعية والعبقرية والابتكار مقترنة بأمانة الاقتباس والاصرار على
مواصلة المسيرة استيعابا لما هو متاح، فحينما نتصفح كتاب «منافع
الاغذية ومضارها «للعلامة الرازى»، تجده قد صوّب فيه كثيرا من
الأخطاء التى وقع فيها «جالينوس» من قبل، فقد استفادوا فى صنع
حضارتهم مما وجدوه صالحا فى حضارات الامم السابقة، والتي قامت
بدورها على اثر حضارات سبقتها فى بلاد عرب ما قبل الاسلام، فى
وادي النيل والجزيرة العربية وفى وادي الرافدين، ويكفيهم فخرا أنهم
وضعوا القواعد الأساسية لهذه الحضارة من وحى عقيدتهم السمحة،
وفى ظل تشريعاتها الحكيمة، كما أنهم حافظوا عليها، مما كان له أكبر
الاثر فى استفادة أهل الأرض قاطبة بها، فإليهم يرجع الفضل فى بعث
الحضارة الاسلامية، وانتشارها على أسس ومبادئ ثابتة، حيث
نشطت حركة الترجمة والتأليف وهو ما سنوضحه فيما نتعرض إليه
من موضوعات.

منهج المسلمين الأوائل فى

الاستفادة من المعارف المتاحة

أولا: أسس هذا المنهج:

لقد قام منهج المسلمين الأول فى الاستفادة من المعارف البشرية
المتاحة لديهم على أسس ثابتة، قاموا بوضعها نصب أعينهم منذ

(١) سورة يونس آخر الآية رقم ٢٤.

(٢) أنظر الإسلام والبيئة ص ٥.

اللحظة الأولى لبعث الحضارة الاسلامية ومازالت ماثلة أمامهم خلال مراحلها المختلفة ونستطيع أن نجمل أسس ذلك المنهج فيما يلي:

١- عنايتهم باللغة العربية:

لقد كانت عنايتهم باللغة العربية عناية فائقة، إلى حد أنها كانت اللغة الدولية آنذاك، كما كان التنافس في إتقانها شائعاً وذائعاً في مختلف الأقطار، ذلك لأنها لغة القرآن الكريم والسنة النبوية الطهور، فكل عناية بها وخدمة لها هي بالدرجة الأولى عناية وخدمة للقرآن الكريم والسنة النبوية الطهور وعلومهما، ومن أبرز أعمالهم وأشهرها في هذا المجال نشاط حركة الترجمة والتأليف باللغة العربية، وتعريب مرافق الدولة، وهو ما يعرف بتعريب الدواوين الحكومية وسك العملة.

«وهي من الاعمال الجيدة التي قام بها الخليفة الأموي عبد الملك ابن مروان، حيث كانت دواوين الشام تكتب باللغة اليونانية، ودواوين العراق تكتب بالفارسية، ودواوين مصر تكتب بالقبطية، فنقلت دواوين الشام والعراق في زمانه، أما دواوين مصر فقد نقلها إلى العربية عبد الله بن عبد الملك بن مروان في عهد الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ، وترجع أهمية هذا العمل الجليل إلى أنه بتعريب الدواوين اضطر جميع ساكني البلاد الإسلامية إلى تعلّم اللغة العربية لغة الدولة الإسلامية كما اصطبغ السكان بصبغة واحدة، كما اصطبغت الدولة بصبغة عربية قومية في الميادين الادارية والمالية، أضيف إلى ذلك أن تعريف السكة قد خلع على الدولة الاسلامية العربية شخصية الاستقلال»^(١).

(١) انظر الجزء الثاني من أعمال الندوة القومية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب - جامعة بغداد .. بحث الترجمة عند العرب وجذورها ، رمزية عبد الله.

٢- العناية بآداب الشريعة:

لقد عُنيَ عناية فائقة بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية، بحيث أخضعوا لتلك الآداب مختلف جوانب حياتهم السلوكية.

٣- الالتزام بمقررات العقيدة الإسلامية:

لقد حرصوا أيضاً على موافقة العلوم والثقافات لمقررات العقيدة الإسلامية والسلوك الفاضل، والأخلاق القويمة استمر ذلك في صدر الإسلام وطيلة عصوره وعهوده الزاهرة فلم تكن حركة الجمع والترجمة نوعاً من النقل الآلي المباشر بقدر ما كانت تنقية وتمحيصاً وتوجيهاً، فقد عملوا جاهدين على تنقية هذا التراث وتمحيصه بالدرجة الأولى للانتقاء والاختيار فما كان من هذه المعارف موافقاً لمنهج الإسلام قبله، وما كان غير ذلك عدلوه ليوافق هذا المنهج إن كان يقبل التعديل، وإلا رفضوه بالكلية، وحتى تتضح لنا تلك القضية فسنورد بعض الأمثلة التي توقفنا على حقيقتها فيما يلي:

المثال الأول: في مجالات الصناعات الغذائية:

هب أنهم أرادوا اقتباس طرق حديثة للصناعات الغذائية أو المشروبات، فإنهم يطلعون على هذه الطرق، ولا يأخذونها قضية مسلمة ولا أمراً واقعاً، وإنما يخضعونها للضوابط الإسلامية، ومقررات الشريعة، فينبغي ألا تختلط بمحرم، كأن تكون قائمة على لحم وشحم الخنزير، كما لا يضاف إليها مسكر كالخمر ونحوه، كما لا يقتصر دورهم على سلامة التصنيع وإنما يمتد ليشمل التسويق، فلا يروجون لهذه السلعة أو تلك بطرق غير مشروعة، ولا يتداولونها على أساس الغش والخيانة على نحو ما هو مقرر في كتب الفقه.

المثال الثاني: في مجالات تصميم الأزياء

إذا أرادوا اقتباس أنواع موديلات الأزياء للمجتمع المسلم، فينبغي ألا تختلط بمحرم أيضاً، كأن تتخذ من الحرير الخالص المحرم شرعاً، ولا تتخذ حلياتها كالأزرار من الذهب، هذا إذا ما أريد استخدامها للرجال، كما يراعى في تصميمها للرجال أو النساء — على أى حال — ضوابط ستر العورة، بحيث لا تظهر الفتنة تصرّيات أو تلميحاً كما تثير الغرائز كل هذا فضلاً عن عدم المغالاة فيها مغالاة تؤدي بصاحبها إلى السفه الذي يتجاوز حد الإسراف ونذكر هذا الموقف ما أثار عن أمير المؤمنين عمر بن العزيز — رضى الله عنه — وقد بلغه — أن ابناً له اشترى خاتماً بألف دينار، فكتب إليه: من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين — إلى عبد نسي نفسه ودينه، أما بعد فقد بلغني أنك اشتريت خاتماً بألف دينار، فإن كنت ترجو الله واليوم الآخر فبع الخاتم واشتر لنفسك خاتماً بدرهمين، وأطعم ألف جائع، واجعل نقش خاتمك «رحم الله امرأ عرف نفسه».

ثانياً: الطرق المتبعة:

لقد كان لعلماء العرب والمسلمين أسلوب فريد في الاستفادة بالعلوم والمعارف المتاحة لهم، تجلّى ذلك في تعهد علوم اليونان والهند وفارس، فعكفوا على جمعها وترجمتها إلى اللغة العربية، ثم قاموا بتعديدها وإنمائها في بيئتهم، كما عكف علماؤهم ومفكروهم على النظر الواعي والتأمل الدقيق والتأليف الرصين، أى أنهم قد سلكوا طريقين، طريق الترجمة وطريق التأليف وهو ما نبينه فيما يلي:

● الترجمة

١- دوافعها:

لقد كانت دوافع الترجمة لدى العرب متعددة، فمنها الدوافع

الدينية والاجتماعية والثقافية والحضارية، فنظراً لارتباط بعض أحكام الدين الإسلامى بالظواهر الفلكية، ومعرفة المواقع الجغرافية للبلدان وحركة الشمس والبروج، وما يترتب على ذلك من ارتباط أوقات الصلاة والصوم بها، فقد قاموا بوضع حسابات وطرق جديدة لم يسبقهم فيها أحد بالإضافة إلى ما نقلوه مما عربوه من الرياضيات وعلوم الفلك، كما اقتضت حركات التحرير العربية الإسلامية واتساع رقعة الدولة الإسلامية اضطلاعهم بكثير من المهام والمرافق من أوجه العمران المختلفة وتقديمها كإقامة الجسور وشق الترع وتعبيد الطرق، مما جعلهم يعنون بعلوم الهندسة والرياضيات، هذا فضلاً عن عنايتهم بالفلسفة والفلك والطب والتنجيم والعلوم الطبيعية والجغرافية.

٢- الجهات المعنية بها :

لقد كانت جهود الترجمة منحصرة في جهتين أساسيتين وهما:

(أ) جهود الدولة:

وقد تمثل ذلك في جهود الأمراء الذين تمكنت هذه الرغبة من نفوسهم فأولوها كبير عنايتهم، وقربنوا النابهين من المترجمين اليهم، وأغدقوا عليهم في العطاء، ومن ذلك ما أشر عن الرشيد حيث كان يأخذ الجزية من أهل الكتاب كتباً علمية يدفعونها إليه، كما بلغ سخاء عطائهم أن المأمون كان يدفع للمترجم أتعابه ذهباً يقدر وزنه بوزن ما يقدم له من كتب، ومن أشهر الذين أحضرهم المأمون لهذا الغرض (حنين بن اسحاق) فقد كان يتقن اللغة اليونانية، واستطاع أن ينقل الكثير منها إلى اللغة العربية، فقد ترجم جميع أعمال «جالينوس» الفلسفية والطبية.

كما أوفد البعثات الثقافية لهذا الغرض، فقد اهتم المأمون بجمع الثقافات الأجنبية القديمة وبعث وفدا لهذه المهمة إلى امبراطور الروم كى يطلع عليها، ولقد اضطر القيصر إلى الموافقة على ذلك بعد امتناع وتردد، وكان ضمن هذا الوفد الحجاج بن مطر وابن البطريق.

(ب) الاهتمامات الفردية:

كما كانت هناك جهود مشكورة لبعض الأفراد والجماعات الذين أخذوا على عاتقهم شراء الكتب وترجمتها على أيدي أمهر الترجمة، وتخصيص الأموال اللازمة لذلك، وكان عملهم هذا من أهم عوامل ازدهار الترجمة بالإضافة إلى رعاية الخلفاء لها، ومن أشهر الأسر والأفراد الذين تحملوا هذا العبء «أسرة موسى بن شاكر» وهم الذين علموا «حنين بن اسحاق» وشجعوه على الترجمة وكذلك الوزير «محمد بن عبد الملك الزيات»، «وسلمويه بن بنان» طبيب المعتصم، وابن أبى دؤاد وبختيشوع بن جبريل وغيرهم.

● التآليف:

وكما نشطت حركة الترجمة نشطت حركة أخرى موازية لها ومواكبة لها أيضا ألا وهى حركة التأليف فى فروع العلم المختلفة، وهو ماسنورده أثناء حديثنا عن بعض الأعلام الذين أثروا الحركة العلمية فى هذه الأثناء.

ثالثا: أمثلة تجلى لنا حقيقة هذا المنهج

(أ) فى مجال الطب

قَسَمُ الأطباء :

لقد خلق الله الإنسان بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه الاسماء كلها واستخلفه فى أرضه، وسخر له ما فى

السموات وما في الأرض جميعا منه، وفضله على كثير من خلقه قال الله تعالى : (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) ولقد فرضت هذه القيمة العظمى للإنسان على المجتمع إحاطته بسياس من الضمانات التى تستهدف حمايته، فقد رأينا منذ فجر التاريخ أناسا اختصوا بخدمة المرضى والسهر على رعايتهم، فضلا عن محافظتهم على صحة الأصحاء، وإن اختلفت هذه الرعاية من عصر إلى عصر، ومن مصر إلى مصر، تبعا لاختلاف العادات والمعارف والامكانيات حتى أن فئة المهتمين بالطب والذين عرفوا بـ (أهل الصنعة) قد وضعوا لهم قواعد فصلوا فيها أنماط السلوك والأخلاق والأفعال التى يجب على من يمارس هذه المهنة أن يلتزم بها، ويراعى بنودها في احترام تام وتطبيق دقيق، وهذه القواعد هى ما نطلق عليه «قَسَم الاطباء».

١- وازع هذا القسم:

أول من وضع هذا القسم هو الطبيب العبقري اليونانى «أبو قراط» الذى عاش في الفترة من ٤٦٠ - ٣٧٧ قبل الميلاد، وأنشأ مدرسة للطب عرفت باسمه حيث كان أبرز روادها، وذلك في الجزر اليونانية الشرقية، وأشهرها جزيرة «قوصى» مسقط رأسه، وتجدر الإشارة الى أن هناك أربعة من الأشخاص يحملون اسم «أبو قراط» في نفس الجزيرة ومن ذات الأسرة، وهم أبو قراط الجد، وأبو قراط الطبيب الذى نتحدث عنه، واثنان من أحفاده.

وطبقا لما أورده «بتمان» فإن كتاب أبو قراط وأقواله وأعماله العلمية الطبية قد جمعت بعد وفاته بنحو مائة عام، وذلك عندما طلب حاكم مصر (بطليموس الأول) إقامة مكتبة في مدينة الاسكندرية تضم الزخائر العالمية، وكان ذلك في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد (٣٢٣ - ٨٢٥ ق.م) وقد وجد هذا القسم ضمن مقتنيات هذه المكتبة الجامعة.

٢- الفئة التي تؤدي هذا القسم:

لقد كان هذا القسم موجهاً إلى الطلاب الذين يرغبون في دراسة مهنة الطب، ولم يكن قسماً للأطباء عقب تخرجهم من الدراسة وإبان مزاولتهم لمهنة الطب، كما هو معروف في دنيا الأطباء أو في غيرهم من أهل الحرف الأخرى، وهذا يدلنا على أن هذا القسم كان بمثابة دستور لطلاب الطب، ومنهجاً سلوكياً لمن يرغب في الانضمام إلى هذه المهنة التي تعتبر مادتها الأساسية الإنسان - أعظم مخلوقات الله تعالى.

ولكى تتضح لنا تلك الصورة أكثر، ويزول من الأذهان ما يبدو فيها من غرابة، مردها إلى توجيه القسم للطلاب لا للأطباء، فإن مهنة الطب كانت مهنة أسرية، فقد كان الأطباء تربطهم رابطة القرابة والأصول العائلية، كما هو معروف في بعض الحرف السائدة حتى اليوم، ومن هنا فقد كان تعليم هذه الحرفة قاصراً عليهم وعلى أولادهم، فإذا ما أراد إنسان غريب عنهم تعلم هذه المهنة، فإن عليه أن يؤدي ذلك القسم، ويوقع على وثيقة تتضمن بنوده إن أراد أن يقتحم هذا الحصن ولم يكن ذلك لوناً من التعسف أو الاحتكار الجائر البغيض، وإنما كان لوناً من ألوان المحافظة على شرف المهنة وأصولها، فضلاً عن كونه ضماناً لسمعة أهلها، فالطالب الذي يوقع على هذا الميثاق الأخلاقي الرفيع، لا شك في أنه سيتقن هذه المهنة، ويعمل جاهداً على ممارستها طبقاً لأخلاقياتها، وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن مدرسة (أبو قراط) كانت تعنى بطب الحكمة ويطلق على خريجها «حكيم» وهي بهذا تناظر التخصص الحالي والمعروف بعلوم الباطنة ولم يكن أطباء هذه المدرسة جراحين.

٣- بنود هذا القسم ومواده :

لقد تعرف العرب على هذا القسم — كما ذكرنا — خلال حركة الترجمة النشطة التي واكبت الفتوحات الإسلامية، والعمل الجاد على

نقل الثقافات المجاورة إلى الثقافة العربية وقد ورد في كتاب «الفهرست» لابن النديم، وفي تاريخ الحكماء للقفطي، ومعنى ذلك أننا سننقل ترجمات هذا القسم وهي ترجمات عديدة، ولكننا سنكتفى بذكر واحدة منها نرى أنها موفية بالغرض، فضلاً عن اشتغالها لغيرها من الترجمات، وهذه هي أهم بنود هذا القسم:

١- يقسم بالآلهة على أنه سينفذ — وبأحسن ما يكون في مقدوره بنود هذا القسم.

٢- أضع معلّم هذا الفن بمنزلة والدي، وأجعل منه شريكاً لي في معيشتي وعندما يكون في حاجة إلى مال سأشركه في مالي، وأعتبر ذريته مساوين لإختي، أعلمهم هذا الفن إذا احتاجوا إلى تعلمه، وبلا أجور. وأنقل العلم بالمحاضرة وكافة طرق التعليم لأولادي ولأولاد معلّم، والتلاميذ الذين وقعوا على بنود الوثيقة، وأقسموا الطاعة لقسم الأطباء، وليس لغير هؤلاء.

٣- سوف أستخدم العلاج لمساعدة المرضى على خير ما أقدر وما أحكم، ولن استعمله لمضرّتهم، أو خطأ بحقهم.

٤- لن أعطى سمّاً لأي أحد، ولو طلب مني أن أفعل ذلك، ولن أقترح مثل هذا، وبنفسي الشيء سوف لا أعطى «فرزجة» لتسبب الإجهاض.

٥- سأحافظ على حياتي وفني بكل طهارة وقديسية.

٦- سوف لا استعمل المشرط على الذين يشكون من الحصى، ولكن أعطى المكان لمن هم من رجال الصنعة في العمل..

وفي هذا إشارة صريحة إلى تخصص أطباء هذه المدرسة، وأنهم يحترمون التخصص فيوجهون مرضاهم إلى أهل الاختصاص كالجراحة ونحوها.

٧- في أى البيوت أدخل سأفعل ذلك لمساعدة المريض، وأحفظ
نفسى من القيام بأى خطأ مقصود، أو أى ضرر، وخاصة الابتعاد عن
الفسق، وكل ماشاهدت أو أثناء ممارستى سوف لن ينتقل إلى
الخارج، ولن أفشى سرّاً، وأعتبر كل هذه الاشياء سرّاً مقدساً.

٨- والآن إن حافظت على هذا القسم ولن أحنث فيه فليسعدنى
الشرف فى حياتى ووقتى بين كل الرجال، وفى كل الأوقات، وإن خالفت
وأنكرت قسمى بنفسى فليتنزل على العكس.

ونحن نرى - كما هو واضح من عرض بنود هذا القسم - أنه قد
وضع ليكون عهداً فى أعناق الطلاب الذين يرغبون تعلم صناعة الطب
على أيدي الأطباء الذين اشتهروا بها، وبرعوا فيها، وعليهم الالتزام
بجميع هذه البنود عند ممارستهم لهذه المهنة، وتعتبر تلك البنود
النواة المبكرة لما هو معروف اليوم بـ (ميثاق شرف المهنة) وقد
أضيفت إليه بنود وبنود حسبما أسفرت عنه الممارسات من تجاوزات،
ولما اقتضته الظروف من ملابسات تختلف باختلاف العهود
والعصور.

٤- دور علماء العرب حيال هذا القسم:

(١) دراسته دراسة واعية مع التعليق عليه:

لقد عرف (أبو قراط) لدى العرب بعد عصر الترجمة من اليونانية
إلى العربية، وكان ذلك فى القرن الثالث الهجرى، وباطلاعهم على هذا
القسم اتضح لهم أنه يشمل على جملة من القواعد والآداب والأخلاق
والتي جاءت بها الشريعة الإسلامية، والتي تعتبر فى مجملها ضروباً
من مكارم الأخلاق، والنظرة الإنسانية الحكيمة التى تتمثل فيمايلي:

١- الامتناع عن القتل أو الإضرار بالغير.

٢- العفة والتفانى والإخلاص فى العمل.

٣- احترام البيوت وحرمتها وأسرارها.

٤- احترام المعلم والوفاء له وفق قواعد البر بالوالدين.

٥- احترام أهل الصنعة (المهنة) مع الوقوف على حدود التخصصات المختلفة فضلاً عن الحفاظ عليها والاستعانة بأصحابها إذا لزم الأمر، كل ذلك لفائدة المريض ومصالحته، فالطبيب الباطنى لا يصح له أن يتدخل جراحياً، وإنما عليه أن يرشد المريض وأن يدلّه على جراح متخصص وهكذا.

تناول الأطباء المسلمون العرب هذا القسم بالدراسة الجادة، وعلقوا عليه تعليقات مفيدة ونافعة، كما أضافوا إليه بنوداً رأوها هامة أيضاً، ومن هذه البنود ما أضافه الطبيب المسلم ابن رضوان عن صفات الطبيب :

١- يجب أن يكون الطبيب كامل الخلق، صحيح الأعضاء، حسن الذكاء، جيد الرؤية، عاقلاً، ذكوراً (لا ينسى ولا يسهو سهواً فاحشاً).

٢- أن يكون حسن الملبس، طيب الرائحة، نظيف البدن.

٣- أن يكون كتوماً لأسرار المرضى.

٤- أن تكون رغبته في إبراء المرضى أكّد من رغبته في تقاضى الأجر (أى محترفاً).

٥- أن يكون مأموناً على الأرواح والأموال، ثقة لا يصف دواء قتالاً، ولا يعلمه، ولا يصف دواء يسقط الأجنة ويسبب الإجهاض، يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه.

(ب) الرقابة على الاطباء:

باتساع نطاق مهنة الطب وكثرة المشتغلين بها كان لابد من إخضاعها للإشراف من قبل الدولة، لضمان إتقانها، فضلاً عن جديتها، وحتى لا تختلط بغيرها من أمور الدجل والشعوذة، وما يتبع ذلك من تعريض حياة الناس للخطر، وصحتهم للاعتلال بدلاً من الاعتدال، ولذلك فقد استحدثت في الدولة الإسلامية نظام الاحتساب (التفتيش) بالنسبة لكل مهنة بما في ذلك مهنة الطب، ولم يكن المحتسب يقوم بهذا العمل على سبيل الاجتهاد وإنما كانت هناك ضوابط وقواعد يسير عليها كي لا تكون الرقابة تعسفية يحكمها الهوى، وتسير تبعاً للغرض، وعليه فقد وضع المسلمون الأوائل لهذه المهنة من الشروط الرقابية ما يضمن سلامتها، ونلخص هذه البنود فيما يلي:

١- تحديد من هو الطبيب؟

وهذا الشرط على جانب كبير من الأهمية، فلا بد أن يكون الطبيب مؤهلاً ومعه إجازة يمارس المهنة بمقتضاها، وإجازته تتوقف على تقدير معلميه وشهادتهم له، وقد كانت هذه الإجازات معترفاً بها ولها قوة الشهادات العلمية التي تمنحها الدولة، وقد رأينا من الوقائع ما يدل على كثير من الدخلاء الذين يمارسون هذه المهنة بدون مؤهلات معتمدين على ذكائهم وما يعرفونه من بعض المعلومات، حتى يفتضح أمرهم بمحض الصدفة في غالب الأحيان.

٢- تعيين رئيس للطباء، بحيث يمكن الرجوع إليه، كما يقوم بالإشراف على أهل الصنعة.

٣- جعل الطب مهنة.

٤- يقوم المحتسب الطبى بأخذ العهد على الطبيب.

وكل هذا الاهتمام يدل على شرف المهنة. وتحلى من يمارسها بالصفات الفاضلة وتقوى الله - تعالى.

(ج) وضع الأدعية:

وهذا باب طيب يعد من أنفع الأبواب التي استحدثها الطبيب المسلم، حيث لم يغب عن وعيه وعن حسه ارتباطه بالله ولجوؤه إليه ضارعاً مبتهلاً لى يعينه على ممارسة المهنة على خير وجه وأن يعصمه من الخطأ والذل، ذلك لأن الشافى فى الحقيقة هو الله - تعالى - الذى قال فى كتابه: «وإذا مرضت فهو يشفين» وقول الرسول صلى الله عليه وسلم - يرشد الطبيب: «أنت الرفيق والله هو الطبيب» وقد وضع أساطين الطب العربى مجموعة من الأدعية منها ما هو مطول كدعاء الطبيب «موسى بن ميمون» وكذلك الأدعية المختصرة.

(د) من صور التزام الطبيب المسلم بهذا القسم:

ولكى يتجلى لنا مدى تمسك الطبيب المسلم بهذا القسم نصاً وروحاً فسنورد تلك الواقعة التى أوردتها القفطى وابن أبى أصيبعة، حيث يتضح لنا من خلالها تمسك الطبيب المسلم بهذا القسم بصورة واضحة ودقيقة، وهذه هى الواقعة: طلب الخليفة المتوكل من الطبيب «حنين بن إسحاق» إحضار سم ليقول به عدوا له، فامتنع حنين وأصر على امتناعه، بالرغم من تهديد الخليفة له بالقتل، وعندما سأله الخليفة عن سبب امتناعه عن تنفيذ الأمر وتعريض نفسه للخطر أجابه قائلاً: لقر منعنى من تنفيذ أمرك شيثان يأمر المؤمنين. قال الخليفة: وما هما؟ قال: الدين والصناعة أى منهنه الطب وشرعها فالدين يأمرنا باستعمال الخير والجميل مع أعدائنا فكيف ظنك بالأصدقاء؟ والمهنة تمنعنا بشرعها من الإضرار ببنى الجنس، لأنها موضوعة لنفعهم،

ومقصورة على معالجتهم، ومع هذا فقد جعل في رقاب الأطباء هذين مؤكداً بأيمان مغلطة ألا يعطوا دواء قتالا، فلم أر أن أخالف هذين الأمرين الشرعيين، فعفا عنه الخليفة لآمانته.

(هـ) ضرورة الالتزام بهذا المنهج:

لقد باتت الحاجة ماسة لإعمال ماسبق بيانه من التزام بشرف المهنة وقسمها، والأخذ به أكثر من أى وقت مضى، حفاظاً على الأرواح، وصيانة لمكانة هذه المهنة التى تشرف بشرف موضوعها وهو الإنسان، فقد أصبحنا نرى الصيحات المتعاقبة، والتيارات الوافدة التى تهب على هذه المهنة بغرض تقويضها، فقد أصبح الإنسان مادة للتجارب، كما انتشر الإجهاض، وشاع الإنجاب عن طريق الأنابيب، بل وسمعنا أخيراً عن بنوك حفظ السائل المنوى بالتجميد، وتجميد الأجنة وإستخدامها عند الطلب، وكلها أمور تدعو إلى اختلاط الأنساب، ونحن نعلم أن من بين مقاصد الشريعة حفظ الانساب، ومن شر ماتبتلى به الأمم بعدها من منهج الله سبحانه فقد أصبحنا نرى من يحاول استحداث تعريف جديد للموت بطريقة ملتوية تتيح لهم الانقضاض على أجساد الأحياء لبقرها، والسطو على ما بها من أجهزة حية كالكبد والكلى وغيرها، وهو ما تصدى له شيخ الأزهر وإمام المسلمين الشيخ جاد الحق على جاد الحق حيث أصدر فتواه الكريمة والمنشورة بمجلة الأزهر فى الجزء الخامس من السنة الخامسة والستين بتاريخ نوفمبر ١٩٩٢م وفيها يقرر فضيلته صراحة على أن تعريف الموت بتوقف القلب عن النبض، وهو ما أشار إليه القانون المدنى المصرى فى المادة ٢٩، على الوجه الذى صرحت به كتب اللغة والفقه بعلاماته الظاهرة الباترة، هو الواجب الالتزام به، وأنه يحرم شرعاً، ويمتنع قانوناً التعرض للمحتضر بقطع أى جزء قاتل من

جسده، قبل انتهاء حياته بظهور علامات الموت سالفة الذكر، فإذا وقع هذا من أى إنسان على المحتضر قبل استظهار وقوع الموت به بتلك العلامات كان قاتلاً إذا انتهت الحياة أو بقيتها بهذا القطع ووجب محاكمته جنائياً.

(ب) فى المجالات الزراعية

نظراً لاتساع رقعة العالم الإسلامى بعد الفتح، واختلاط عرب الجزيرة الفاتحين بغيرهم من سكان تلك الأقطار، ونظراً لما أدركه هؤلاء الأفذاذ بصادق حسهم من تنوع فى بيئات تلك الأقطار، ومن ثم فقد أمكنهم التعرف الواعى والدقيق على السلالات الجيدة من الحيوانات والنباتات، وتوصلوا عن طريق المثابرة والعمل التجريبي الدؤوب إلى الاستفادة من كل ما هو متاح فى كثير من أغراض التربية، ائتماراً بأمر الله إذ يقول : (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) ^(١) ونستطيع أن نلمح إلى أبرز أعمالهم ومنجزاتهم فى هذا المجان على النحو التالى:

١- اختيار البيئات المناسبة لبعض السلالات:

قادتهم خبرتهم إلى التوصل الدقيق لفهم تأثير البيئة على كفاءة الحيوان والنبات، فقاموا - من هذا المنطلق بالعمل على نقل بعض السلالات الحيوانية من بيئاتها الأصلية التى توجد بها إلى مواطن أخرى جديدة لم تكن قد نقلت إليها من قبل، كنوع من المحاولات الجادة للاستفادة بها بصورة أفضل عن طريق رفع كفاءتها الإنتاجية والحيوية من جهة، ولإكثار الثروة فى ربوع الوطن الإسلامى من جهة أخرى، هذا فضلاً عن استخدام الكثير منها فى الأمن الغذائى وتأمين

(١) سورة الملك : ١٥

وسائل المواصلات، وأدوات الجهاد كالإبل والخيول، ومن أعمالهم الحميدة في هذا الصدد مايلي:

● تم نقلهم للأغنام من موطنها الأصلية على شواطئ البحرين الأسود والأبيض، من تركيا والشام والأناضول إلى أسبانيا والتي كانت تعرف آنذاك ببلاد الأندلس، ولقد جادت تربية الأغنام هناك بصورة رائعة، حتى أصبحت تلك البلاد موطناً ممتازاً لإنتاج أجود أنواع الصوف الناعم والفاخر.

● كما نقلوا الجمل العربي من موطنه الأصلي بالجزيرة العربية إلى كثير من بقاع العالم وكما يقول الدكتور عبد الحافظ حلمي: والابل نوعان: ذو السنم الواحد، وذو السنمين، والأول منهما هو الجمل العربي وهو منتشر في شبه الجزيرة العربية ويمتد منها شرقاً إلى الهند، وغرباً إلى البلاد المتاخمة للصحراء الكبرى في أفريقيا، أما النوع الثاني ذو السنمين فهي الإبل العوامل التي تستوطن أواسط آسيا^(١). فهذه الحيوانات كانت تستوطن الجزيرة العربية وانتشرت إلى البقاع المجاورة عن طريق النقل بعد الفتح الإسلامي.

● تم نقل الحصان العربي من موطنه الأصلي بالجزيرة العربية إلى كثير من بقاع العالم، كالشام ومصر والأندلس وصقلية وأوروبا.

● كما جلبت الأبقار والجواميس من موطنها الأصلي بالهند والعراق والشام ومصر وشمال أفريقيا والأندلس.

٢ - اتباع برامج التربية :

من الأمور الملفتة للنظر حقاً ما قام به المسلمون الأوائل من اتباع برامج تربية الحيوان والنباتات بصورة دقيقة وفقاً للأساليب العلمية الحديثة في التربية، فقد عرفوا تأثير النخل والمحافظة على السلالات

(١) عالم الفكر مجلد ١٢ ص ٩٤ الكويت .

الحيوانية الجيدة عن طريق سجلات النسب التى تصونها من الاختلاط، ونذكر لهم فى هذا الصدد مايلي:

(أ) تربية الخيول العربية:

نظرا لشهرة العرب التى طبقت الآفاق فى الفروسية، فضلا عن حاجتهم الملحة لاقتناء الخيول فى الكروالفر، والحل والترحال، فقد عملوا على اقتناء الخيول العربية لما تمتاز به من قوة ورشاقة، ولهم فى ذلك قصب السبق، فقد كانوا يعنون ببرامج التربية ويحتفظون بسجلات الأنساب، على ما هو مشهور وثابت، ومن الأمور التى ضاعفت من حبهم للخيل واعتنائهم بها وحفاظهم على أصالتها تلك الإشارات السامية التى وردت فى القرآن الكريم والسنة النبوية الطهور، فقد جاء فى الحديث الشريف: «كل لهو ابن آدم باطل إلا تأديبه فرسه، وملاعبته أهله، ورميه عن قوسه».

ويقول النبى — صلى الله عليه وسلم — «الخيلى معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة وأهلها معانون عليها، والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة».

وبهذا اجتمع للعرب فى حب الخيل جهتان، حب من جهة الطبع فهم يحبونها بطبعها وحب من جهة الشرع، على نحو ما حبيبهم فيها نبيهم — صلى الله عليه وسلم —.

وقد أنشد أبو عمر بن عبد البر فى التمهيد لابن عباس قوله:

أحبوا الخيل واصطبروا عليها

فإن العز فيها والجمالا

إذا ما الخيل ضيعها أناس

ربطناها فأشركت العيالا

نقاسمها المعيشة كل يوم

ونكسوها البراقع والجبالا

وقال بعض الحكماء: ثلاثة لا يألف الشريف من خدمتهم «الولد والضيف والفرس».

(ب) تربية الحمام الزاجل (حمام الرسائل):

لقد أهتم الخلفاء الفاطميون في مصر بأمر الحمام وتربيته وتعليمه، فقد أفردوا له ديواناً وجرائد خاصة بأنساب الحمام كما يقول القلقشندي.

والحق أن الحمام وإن كانت بعض الشعوب القديمة التي سبقت العرب المسلمين قد استخدمته فإن الشعوب الإسلامية قد وسعت من استخداماته ورياضته كوسيلة هامة من وسائل الاتصال في السلم لأغراض التجارة وفي الحرب بصورة مكثفة لما لذلك من أهمية في نقل الأخبار المتعلقة بالأعداء واستعداداتهم، حيث شيدوا له الأبراج والمحطات في مختلف أنحاء الأمصار والمدن الكبيرة والصغيرة، فضلاً عن مناطق الثغور.

وقد عرف العرب هذه الاستخدامات العلمية في نقل المعلومات البريدية بيسر بواسطة الحمام منذ القرن الثاني للهجرة على أقل تقدير، ويعتبر الخليفة المهدي - ثالث خلفاء بني عباس - أول من نظم استخدام الحمام في البريد الرسمي وكان ذلك في القرن الثامن الميلادي، أما الخليفة العباسي المعتصم بالله (٧٨٩ - ٧٩١هـ) فقد قام بتدريب الحمام الزاجل بشكل دقيق وسريع بواسطة أناس متخصصين في تربية الحمام وتدريبه على نقل الرسائل من بغداد إلى الموصل وبالعكس.

والحديث عن حمام الرسائل شوشجون، وحتى لا نبالغ في الاستطراد فإنني أود أن أذكر شهادة لعالم الآثار الانجليزي

«هيوبرت برد» أنقلها بتصرف من بحث للاستاذ / عادل محمد الشيخ، ضمن أعمال الندوة القومية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب حيث يقول فيها: ومهما يكن من أمر، فقد ظل الحمام الزاجل يستخدم في مصر قروناً طويلة قبل أن تفكر أوروبا في استخدامه رسمياً، وقد أفرد له خلفاء مصر ديواناً خاصاً، وأرسلوا بواسطته رسائل رمزية على قصاصات من الورق الرقيق من القاهرة إلى القسطنطينية والبصرة وغيرها، وعين للحمام الزاجل موظفون عندهم دفاتر بأنساب الحمام، وبعد المسافات التي أرسلت إليها، ولك أن تعجب كيف كان الحمام يحمل الرسائل الهامة إلى ألف ميل من البصرة إلى القسطنطينية ومن بغداد إلى جميع أنحاء العالم العربى، إن الذى أعانه على ذلك هو إنشاء أبراج الحمام على مسافات محددة يبعد بعضها عن بعض خمسين ميلاً على طول طرق القوافل في جميع الميلاذ الإسلامية، قد استخدم التجار الأوروبيون في الاسكندرية الحمام في نقل الرسائل إلى قناصلهم في حلب يعلمونهم فيها بمواعيد وصول السفن، وكانت هذه الطيور تأتي بالرسائل إلى حلب في ظرف ٤ ساعات بدلا من أربعة أيام لو أرسلت بالبريد الأرضى.

كما كان يحتفظ بالطيور لاستخدامها في وقت الخطر والعدوان على القوافل، حيث كان على رئيس القافلة أن يطلق هذه الطيور اللحظة التي يداهم فيها الخطر في الصحراء، لكي يطلب النجدة من آخر مدينة غادرها.

وقد نظم السلطان نورالدين الذى ولى حكم مصر ١١٤٦م نقل البريد الحكومى والرسمى بشكل بديع ومنسق، حيث أنشأ محطات للحمام الزاجل في أهم طرق الدولة، وكانت هذه المحطات عبارة عن أبراج غاية في الجمال، يرتفع الواحد منها من ٥ — ١٠ أمتار وبعرض

٢٠ - ٣٠ متراً مربعاً مقسمة إلى أعشاش وملاجئ تحيط بمساحة واسعة في الوسط خصصت لوضع الماء والغذاء، وكانت مشيدة من الخشب، تمثل فناً معمارياً إسلامياً رفيعاً وفريداً في بابيه، كما كان ينقش على منقار الحمام اسم السلطان، كما توضع على أرجلها أرقام يسهل عن طريقها تمييزها.

وإن كنت أضيف تعليقاً على هذا الفن، وتلك المهارات، ألا وهو أن هذه الملكات والعقول المبتكرة قد انطلقت تستجلى غوامض الكون بنور من هدى إيمانها فقادت معارفها إلى الخير والرفعة، في الوقت الذي انطلق غيرهم محاولاً تحقيق ذات الهدف ولكنه أخفق نظراً لتكسية جادة الطريق، فإذا كان «داروين» قد شطحت به أفكاره لما شاهده في دنيا الطيور من غرائب وعجائب في رحلته الشهيرة فقال بنظرية التطور، فإن علماء العرب والمسلمين لم يقولوا بهذه الترهات، وذلك لأن فكرهم معصوم بمقررات الشرع، ومن هنا ظهرت الفروق واضحة جلية.

٣- دفع عجلة التكامل بين أقطار الأمة الإسلامية:

لقد استفاد هؤلاء الأفذاذ من تنوع الثروات في الأقطار ١٨١٣ الإسلامية وتعددها استفادة طيبة فقد أسهم ذلك في اتساع نطاق التبادل التجاري بين أقطار الأمة الإسلامية، على نحو يمكنه أن نطلق عليه بلغة العصر (السوق الإسلامية المشتركة) أي أنهم بقريحتهم الصافية، ونفوسهم التي صاغها الإسلام على نحو فاضل فكانوا يسبقون عصورهم في التكامل والابتكار والتفوق، كل ذلك لخدمة الأوطان وخدمة بنى الإنسان، لا على نحو ما يفعله غيرهم في هذا الزمن من تكتلات بغيضة، هدفها الأساسي احتكار الأقوات والأرزاق،

كوسيلة لتجميع العالم وربطه بعد تمزيقه بتلك التكتلات في مختلف شئون الحياة، كالسوق الأوروبية المشتركة وغيرها من تلك المسميات، فهاهى المجاعات تنتشر في أرجاء كثيرة من العالم إلى حد إبادة الشعوب، وماشعب الصومال عنا ببعيد، وهو شعب مسلم.

٤- تأليف دوائر المعارف الزراعية (كتب الفلاحة):

لقد انفرد علماء العرب والمسلمين بتأليف الكثير من كتب الزراعة التى تعرف فى التراث الإسلامى بكتب الفلاحة، وللإنصاف فإن هذه الكتب ماهى إلا موسوعات زراعية، حيث كانت تضم اهتماماتهم بمختلف النواحي الزراعية كتصنيف التربة، وطرق الحرث وآلاته، والتسميد العضوى والمعدنى، ومصادر المياه، ومواصفات قنوات الري، كما ضمنوها أهم العمليات الزراعية الخاصة بكل من محاصيل الحبوب والبقول وأشجار الفاكهة والخضر، هذا فضلاً عن عنايتها بالنباتات الطبية وتربية الحيوان وبيطرته من حيث العناية بصحته وعلاجه، كما عنيت بالاقتصاد الزراعى وإدارة المزرعة بل تطرقت إلى تحديد مواصفات العمال الزراعيين، وأفضل طرق تخزين المنتجات الزراعية، وتضمنت أيضاً طرق قياس الأرض والآلات اللازمة لذلك، كما وضعوا التقاويم الزراعية الفصلية لاسترشاد الزراع بها، وقد أصبحت كل هذه المسميات أقساماً وتخصصات فى المعارف الزراعية، فلقد كانوا بحق موسوعيين موهوبين وسنقدم فيما يلى بياناً بأهم تلك المؤلفات لنقدر القوم حق قدرهم:

٥ - علماء الزراعة المسلمون وأهم منجزاتهم الفلاحية

ونود أن نذكر هؤلاء العلماء مرتبين على حسب الأوطان التى استقروا فيها لا على حسب فترات حياتهم ليكون ذلك أسهل لحصرهم

وربط أعمالهم ببعضها، وليظهر لنا السابق من اللاحق وذلك على النحو التالي:

(أ) في مصر:

١- ابن معاني: هو أبو المكارم أسعد بن مهذب المتوفى (٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م).

ألف كتاب قوانين الدواوين، وكتاب الفلاحة المصرية.
وكتاب الفلاحة المصرية حققه عزيز سوريال عطية، مطبعة مصر - القاهرة ١٩٤٣ م.

٢- المالقي: ضياء الدين المالقي أو محمد بن عبد الله بن أحمد، المتوفى (٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م).

ولد في مالقة بالاندلس وسكن أشبيلية، وتجول في نواحي المغرب ومصر وأسيا الصغرى، ودخل في خدمة الملك الكامل الأيوبي.

٣- الوطواط: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن يحيى، المتوفى (٧١٨ هـ / ١٣١٨ م).

ألف كتاب مناهج الفكر ومناهج العبر، وقد نشره المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت ١٩٨١ م.

(ب) في العراق:

١- المازني: النضر بن شميل التميمي المتوفى (٢٠٤ هـ / ٨١٩ م).

ألف كتاباً يحتوى على الزرع والكرم والعنب وأسماء البقول والأشجار.

- ٢- الأصمعي: أبو سعيد عبد الملك المتوفى (٢١٦هـ / ٨٣١م).
ألف كتاب النخل والكرم، نشره أوغسيت هنفر ١٨٩٨م.
- ٣- ابن الأعرابي: المتوفى (٢٣١هـ / ٨٤٥م)
ألف كتاب الشجر والنبات وكتاب الزرع.
- ٤- السجستاني: أبو حاتم المتوفى (٢٥٥هـ / ٨٦٨م).
ألف كتاب الخصب والقحط، ونشره لاغوستيا بالرو، إيطاليا ١٩٧٣م.
- ٥- سهل بن محمد الجشمي السكري المتوفى (٢٧٥هـ / ٨٨٨م).
ألف كتاب النبات وكتاب الكرم.
وقد نشر أوغسيت هنفر كتاب النبات - بيروت عام ١٩٠٨م.
- ٦- الدينوري: أبو حنيفة أحمد بن داود المتوفى (٢٨٢هـ / ٨٩٥م).
ألف كتاب النبات.
- ولقد قام «لونهارد ليفين أبالا ١٩٥٣م بنشر القسم الخامس منه، كما اهتم به الباحث زلبربرج ١٩٠٨م حيث خصص رسالته للدكتوراه من جامعة «برسلاو» عن هذا الكتاب وعنوانها (كتاب النبات لابي حنيفة الدينوري). اسهام في تاريخ النبات عند العرب.
- ٧- ابن وحشية: أبو بكر بن علي المختار النبطي المتوفى (٢٩١هـ / ٩٠٣م).
وألف كتاب الفلاحة النبطية.

٨ - الحامض البغدادي المتوفى (٣٠٥هـ / ٩١٧م)، وألف كتاب الزرع.

٩ - المفضل المتوفى (٣٠٨هـ / ٩٢٠م).

الف كتاب الزرع والنبات والنخل.

١٠ - المفجع البصري المتوفى (٣٢٧هـ / ٩٣٨م).

الف كتاب الشجر والنبات.

١١ - ابن خالويه: أبو عبد الله الحسين بن أحمد المتوفى (٣٧٠هـ / ٩٨٠م).

الف كتاب الشجر، وقام صموئيل بثيرج - برلين بنشره عام ١٩٠٩م.

١٢ - مؤلف مجهول القرن الثامن الهجري.

المؤلفات:

مفتاح الملاحة لأهل الفلاحة.

نشره محمد عيسى صالحية وإحسان صدقي العمد - الكويت ١٩٨٤م.

(ج) في الشام:

١ - قسطوس بن لوقا البعلبكي المتوفى (٢٩٥هـ / ٩٠٨م).

ألف كتاب الفلاحة الرمية، طبع في مطبعة الوهبة في القاهرة سنة ١٢٩٣هـ / ١٧٨٦م.

٢- التميمي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد (من القدس)
المتوفى (٣٧٠هـ / ٩٨٠م).

كانت له معرفة جيدة بالنبات وماهيته.

٣- الانصارى: شمس الدين محمد بن أبي بكر (٧٢٧هـ /
١٣٢٧م).

الف الدر الملتقط في فلاحتي الروم والنبط.

٤- رياض الدين أبو فضل المتوفى (٩٣٥هـ / ١٥٢٩م).

وآلف كتاب جامع فوائد الفلاحة، وهو كتاب كبير جامع في
الفلاحة.

٥- النابلسي: عبد الغنى المتوفى (١١٤٣هـ)

لخص كتابا الغزى وسماه علم الملاحة في علم الفلاحة.

(د) في الاندلس:

١- أبو القاسم الزهواوي، قرطبة المتوفى (٤٠٤هـ / ١٠١٠م).

آلف كتاب مختصر الفلاحة، طبعه البروفيسور بيرس.

٢- ابن واهد اللخمى، عبد الرحمن، طليطلة المتوفى (٤٦٧هـ /
١٠٧٥م).

أنشأ حديقة نباتية سميت (جنة السلطان) بناء على طلب الخليفة
المأمون.

٣- ابن بصال: محمد بن ابراهيم - طليطلة المتوفى (٤٩٩هـ /
١١٠٥م).

عاش في طليطلة، وتركها عند سقوطها سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م
ورحل إلى أشبيلية وقرطبة، عاصر بن واقد وابن الحجاج الأشبيلي وأبو
الخير الأشبيلي، وتبادل معهم العلوم والمعلومات الزراعية، كان في
خدمة الخليفة المأمون والمعتمد.

أعماله العلمية:

(أ) كتاب القصد والبيان أو ديوان الفلاحة.

ألفه بتكليف من المأمون، ترجم هذا الكتاب وأعيد طبعه ١٩٥٥م.

(ب) انشأ للمعتصم حديقة ملكية، وألحق بها بستاناً يجرى فيه
تجاربه الزراعية.

ولقد أخذت أعمال ابن بصال قيمة علمية فريدة لأنه اعتمد على
الرحلات والتجوال في بلاد الوطن الإسلامي واضعاً في ذهنه طبيعة
الأرض واختلافاتها وتأثير ذلك على المزروعات فقد رحل رحلات علمية
في بلاد البحر المتوسط خصوصاً مصر والاسكندرية وصقلية، وكل
هذا يجعل لكتابه الفلاحة الذي ألفه في الأندلس قيمة علمية بالنسبة
للمناطق التي زارها بالإضافة إلى الأندلس.

٤ - ابن الحجاج الأشبيلي: أبو عمرو أحمد بن محمد - أشبيلية -
المتوفى (٤٦٦هـ / ١٠٧٣م) له مؤلفات عديدة من أشهرها:

المقنع، وقد حققه كل من إبراهيم حمد مهاوشى الدليمي وصالح
جرار جابر أبو صافية ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢.

٥ - أبو الخير الأندلسي الأشبيلي، أشبيلية - المتوفى (٤٩٤هـ /
١١٠٠م) ألف كتاب النبات.

وقد اعتمد في تأليفه على نتائجه وتجاربه الزراعية الخاصة والتي أجريت على ٥٨٥ نوعاً من النباتات و ٥٠ نوعاً من أشجار الفاكهة. وكان هذا الكتاب مرجعاً لابن العوام، ونشر هذا الكتاب التهامي الناصر الجعفرى.

٦ - الطغزى: محمد بن مالك - غرناطة، المتوفى (٥٠١ هـ / ١١٠٧ م).

كان في خدمة ابن يوسف بن تاشفين، كما اتصل بابن بصال واستفاد منه.

ألف زهرة البستان ونزهة الأبدان.

٧ - ابن العوام: أبو زكريا يحيى بن محمد - أشبيلية (٦٠٠ هـ / ١٢٠٠ م).

وقد استفاد بجهود العلماء الذين سبقوه كابن بصال والأشبيلي. وألف كتاب الفلاحة الذى ترجم إلى اللغة الإسبانية ١٨٠٢ م، ثم الفرنسية ١٨٦٤ م والأردية والتركية.

٨ - النجمى: أبو عثمان - الحمراء - المتوفى (٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م).

ألف كتاب أبدأ الملاحه وأنهى الرجاحة في شغل الفلاحة.

واعتمد فيه على كتب ابن بصال والطغزى.

٩ - الغرناطى: الحاج أحمد - غرناطة - مؤلف كتاب في الفلاحة.

١٠ - ابن الفضل الاندلسى - غرناطة - ألف كتاباً في الزراعة.

٦ - لمحة عن علماء العرب المبرزين في مجالات الزراعة :

لقد كان للعلماء العرب إبان ظهور الإسلام وفي الصدر الأول منه

دور ريادى مرموق، فقد أسعفتهم قرائحهم بوضع القواعد العلمية على ركائز ثابتة لا يزال معظمها حتى الان فى عداد المراجع، التى يرجع اليها علماء العصر الحديث، كل هذا فى إطار نظرة شمولية جعلتهم بحق موسوعيين، نظرا لما التزموه فى فكرهم من الاعتماد على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فراحوا على ضوء هذا الاساس ينقبون عن المعرفة، موقنين بأن الدين هو الموجه الأساسى للعقل وراعية، واضعين نصب أعينهم قول الله تعالى :- «إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا».

وسنقدم إشارات وجيزة للتعريف ببعض علماء المسلمين الذين أسهموا وشاركوا بإيجابية فى كثير من الانشطة الزراعية، فضلاً عن اسهامهم فى غيرها من أفرع العلم المختلفة، وذلك فيما يلى:-

(أ) الجاحظ:

هو أبو عثمان بن بحر، له مؤلفات قيمة، من أبرزها كتابه الشهير «الحيوان» الذى جعل اسمه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم الحيوان، وقد اهتم فيه بدراسة كثير من الظواهر الفسيولوجية والسلوكية والتصنيفية، وله ابحاث علمية أجراها على بعض الحيوانات.

(ب) ابن سينا: (٣٧٥-٤٢٨هـ / ٩٨٠-١٠٣٧م) :

هو أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا، ولد فى بلده أنشنة من منطقة بخارى، يعد من أكابر علماء عصره، بل ومن القلائل الذين تربعوا على قمة الفكر فى تاريخ الإنسانية حتى الان ويعتبر بحق مؤسس علم وظائف الأعضاء «الفسيولوجى» وإليه يرجع الفضل فى تدوين كثير من الحقائق التى ترجمت إلى اللغات الأجنبية، والتى كانت

أساساً للعلم في جماعات أوروبا قرابة ستة قرون تلت عصره، وإذا كان ابن سينا يعرف على أنه طبيب، فإنه مع هذا كان مبرزاً في العلوم الزراعية ومن أبرز أعماله في مجالات الزراعة مايلي:-

١ - قام بوصف مئات الأنواع النباتية والحيوانية بدقة وخبرة فائقتين، كما وضع لها الاسماء المناسبة ولذلك فإن علماء العرب يطلقون عليه «لينيوس العرب».

٢ - يعتبر أول من أشار أن النبات يشارك الحيوان في الانفعالات، وبخاصة تلك التي تتصل بالغذاء.

٣ - يعتبر أول من أشار أيضاً إلى أن العامل المؤثر في الجنس هو الذكر والأنثى، وهو ما أمكن التعرف عليه حديثاً بتقدم علوم الوراثة.

٤ - قام بتصنيف الحيوانات إلى مجاميع على أساس التركيب التشريحي لها وهو ما يعرف حالياً بعلم التشريح المقارن.

٥ - تكلم عن التكافؤ والتناظر.

٦ - تناول بالدراسة كثيراً من الظواهر الفسيولوجية التي تتصل بالحيوان كالعقم والأسباب المؤدية إليه وكذلك ردود الأفعال والحركات الإرادية وغير الإرادية.

(ج) الرازي (٨٦٥-٩٢٦م) :

أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، ويدانى ابن سينا في مكانته العلمية ولقد درس تغذية الحيوان ومكوناته الغذائية.

(د) الدميري:

كمال الدين الدميري المصري .

ومن أشهر أعماله مؤلفه القيم «حياة الحيوان الكبرى» .

حيث قام فيه بترتيب الحيوانات المعروفة وتصنيفها على حروف المعجم، كما ضمنه كثيراً من المعلومات العلمية القيمة سواء في مجال وظائف الأعضاء «الفسولوجى» أو السلوك أو البيئة مما جعل علماء العرب يثنون عليه ويشيرون إليه صراحة على أنه من أهم الأعمال العلمية القيمة.

وهناك ناحية مهمة يجب الالتفات إليها في هذا المؤلف بخصوص التوجيه الإسلامى ألا وهى أنه قد اهتم فيه بإبراز النواحي الفقهية والأحكام المتعلقة بهذه الحيوانات من حيث الحل والحرمه وهذا عمل غير مسبوق، وتفتقر إليه الكتابات الحديثة عن المملكة الحيوانية. وهذا غيظ من فيض بالنسبة لهؤلاء الأفاضل.

رابعاً: دور الخلف بالنسبة للسلف

وبعد أن تجولنا في رحاب هذه الحضارة العريقة تأثراً بغيرها وتأثيراً فيها فحرى بنا أن نقدم رؤية موضوعية نقيم من خلالها هذا الإنجاز الرائع الضخم، لنرى ما صار إليه أمر الخلف بالنسبة لحال السلف، فإذا كان علماء المسلمين قد بلغوا كما رأينا شأواً لا يبارى، في التفكير العلمى والنظرة الواعية الطموح والمستوعبة فآثروا حضارة الإنسان، وكانوا بحق صنّاع حضارة لا مجرد نقلة حضارات، الأمر الذى شهد له وبه العدو قبل الصديق، فقد ألفوا الموسوعات القيمة في علوم الفلاحة، وفي تربية الحيوان وتدجينه بصورة منقطعة النظير، من نحو ترويض الخيول وتدريب الحمام الزاجل على نقل الرسائل المهمة في السلم والحرب والتجارة وسائر الأغراض، فهم أول من استخدم سلاح الجو الحى يوم أن كانت الأخبار والرسائل تتعرض للخطر إذا ما سار بها الركبان على الأرض، إشارة إلى قول القائل:

واطلبوا المجد على الأرض

فإن هي ضاقت فاطلبوه في السماء

فهل سار الابناء على درب الاباء؟ أم ماذا ترى؟

وإننا نقول وفي الحلق غصة ومرارة: إن الأبناء قد تقاعسوا عما بدأه الأجداد في الوقت الذي نسج فيه أبناء الغرب على منوال العرب الأوائل، حيث أخذوا من تراثنا العلمي مقومات حضارتهم المادية حتى وصلوا إلى مستوى أصبحنا نحسدهم عليه في شتى ميادين العلم بما فيها الميادين الزراعية والطبية والفلكية حتى بلغوا القمر ويفكرون في الوصول إلى غيره من ضواحي هذا الكون الفسيح، أخذوا من تراثنا بأسلوب علمي في البحث في الوقت الذي تركنا فيه تراثنا وراءنا ظهريا إلى حد أننا نهون منه ونتطلع إلى بضاعة الغير التي قد لا تفي بأغراضنا، فهل سمعنا عالماً مسلماً في العصر الحديث - رجع إلى كتب الفلاحة ليعرف أسرارها ويقوم بالتحقيق والتدقيق لتأصيل ما بها من درر علمية؟ نكف أيدينا في الوقت الذي وجدنا فيه الباحث زلبريرج ١٩٠٨م يحصل على رسالة الدكتوراه من جامعة برسلاو عن تحقيق كتاب النبات لأبى حنيفة الدينوري، وذلك تحت عنوان كتاب النبات لأبى حنيفة الدينوري إسهام في تاريخ النبات عنه العرب كل هذا وغيره يحتم علينا أن نشكل ثقافتنا العلمية ونصبغها بالصبغة الدينية لتكون على النحو التالي:

١- يجب أن نلتزم بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية.

٢- علينا أن نواكب المركب ولا نتخلف عنه فنبدأ من حيث أنتهى الآخرون. مستخدمين أحدث ما وصلوا اليه من تقنية

العصر مع تطويرها لظروفنا المحلية وبخاصة مجالات الزراعة لتحقيق اكتفاء ذاتي من الطعام. الذي بات متحكما في شتى مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية.

٣- يجب علينا أن نتريث، فلا ننقل إلى علومنا ومعارفنا الإنسانية إلا ما يفرضه علينا تراثنا الاسلامي الذي يجب أن نخضع له مختلف جوانب حياتنا السلوكية.

٤- علينا أن نحرض كما حرص سلفنا على جعل اللغة العربية لغة قومية وعالمية في الترجمة والتأليف وتعريب الدواوين وسك العملة، ولا نظل عاكفين على تبني اللغات الأخرى فان ذلك لا يعدو أن يكون لونا من التغريب، وكان من أثره أن جئنا على اللغة العربية جناية كبيرة فأصبحت ترى المسلم العربي لا يعرف الفاعل من المفعول في الوقت الذي نجده يتقن اللغة الانجليزية أو غيرها اتقاناً، هذا فضلا عن التعصب للنظريات الوافدة مما يصدق عليه قول القائل:

اتاني هواها قبل أن أعرف الهوى

فصادف قلبا خاليا فتمكن

وصدق الله إذ يقول :

﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ .

المراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- السنة النبوية.
- ٣- الندوة القومية الاولى لتاريخ العلوم عند العرب، جامعة بغداد، مركز احياء التراث العلمى العربى ١٣ — ١٥ شباط ١٩٨٩ م.
- ٤- كتاب الحيوان للجاحظ، طبعه الطبى بالقاهرة.
- ٥- حياة الحيوان الكبرى للدميرى، طبعه الشعب بالقاهرة.
- ٦- معجم البلدان لياقوت الحموى .
- ٧- التربية الاسلامية وأثرها في الحضارة الاوروبية. د. سعد عبد الفتاح عاشور.
- دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٦٣ م.
- ٨- أصل الانواع، تشارلز دارون ترجمة اسماعيل مظهر.
- مكتبة النهضة - بيروت - بغداد.
- ٩- عالم الفكر، مجلد ١٢ ص ٩٤، وزارة الإعلام بالكويت.
- ١٠- مجلة الفيصل - العدد الأول، السنة الأولى ص ٩٣ وما بعدها - يونية ١٩٧٧.
- ١١- البيئة في الفكر الانساني والواقع الايماني، للدكتور عبدالحكم عبداللطيف الصعیدی، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٣ م.
- ١٢ - الحشرات في القرآن والسنة والعلم الحديث، للدكتور عبدالحكم عبداللطيف الصعیدی، دار الكتاب للنشر، ١٩٩٣.

الفهرس

١- المقدمة

٢- علماء المسلمين بين النقل والابتكار

٣- منهج المسلمين الاوائل فى الاستفادة من المعارف المتاحة

أولا : أسس هذا المنهج

١- عنايتهم باللغة العربية

٢- العناية بأداب الشريعة

٣- الالتزام بمقررات العقيدة الاسلامية

ثانيا : الطرق المتبعة

أ- الترجمة

(١) دوافعها

(٢) الجهات المعنية بها

● جهود الدولة

● الاهتمامات الفردية

ب- التأليف :

ثالثا : أمثلة تجلى لنا حقيقة هذا المنهج

أ- فى مجال الطب

● قسم الاطباء

- ١ - واضع هذا القسم
- ٢ - الفئة التي تؤدي هذا القسم
- ٣ - بنوهم هذا القسم ومواده
- ٤ - دور علماء العرب حيال هذا القسم
- (أ) دراسة واعية مع التعليق عليه
- (ب) الرقابة على الاطباء
- (ج) وضع الادعية
- (د) صور التزام الطبيب المسلم ببشود هذا القسم
- (هـ) ضرورة الالتزام بهذا المنهج

ب - في المجالات الزراعية

- ١ - اختيار البيئات المناسبة لبعض السلالات
- ٢ - اتباع برامج التربية
- (أ) تربية الخيول العربية
- (ب) تربية الحمام الزاجل (حمام الرسائل)
- ٣ - دفع عجلة التكامل بين أقطار الامة الاسلامية
- ٤ - تأليف دوائر المعارف الزراعية (كتب الفلاحة)
- ٥ - علماء الزراعة المسلمون وأهم منجزاتهم الفلاحية

(أ) في مصر

(ب) في العراق

(ج) في الشام

(د) في الأندلس

٦ - لمحة عن علماء العرب المبرزين في مجالات الزراعة

(أ) الجاحظ

(ب) ابن سينا

(ج) الرازي

(د) الدميري

رابعاً : دور الخلف بالنسبة للسلف

٤ - المراجع

رقم الإيداع ٩٣ / ٥٦١٩

الترقيم الدولي : 0 - 11 - 52 / 5 - 977 - I . S . B . N

دار ماجد للطباعة

ت : ٨٢١٢٣٨

